المحاضـــرة الخامسة:

سياســـة الاستعمار الايطالى فى ليبيا

01. ليبيا: صحراء بمقومات متوسطية:

لم تكن جغرافية ليبيا الطبيعية والسكانية أقل أهمية من باقي العوامل المؤثرة في سيرورة الأحداث التاريخية بليبيا، فهي تقع شمال القارة الافريقية بين خطي طول 25 و 09 درجة شرقا ودائرتي عرض 33 و18 شمالا[1]، شرقها تقع مصر، وغربها الجزائر، ويحدها من الجنوب السودان، ومن الشمال البحر الأبيض المتوسط، وهي تؤلف النصف الشرقي من المغرب العربي، تقدر مساحتها بـ1790000 كلم2، وصنفت ليبيا حسب توزيع المساحات من أكبر الصحاري في العالم.إلى جانب ذلك فهي تشكل همزة وصل بين إفريقيا وأوربا وبين المغرب والمشرق، كما تتوفر على شريط ساحلي يتجاوز الألفين كليومتر ممتدا من حدود مصر شرقا إلى تونس غربا[2].

تعود مطامع إيطاليا بخصوص ليبيا إلى ما بعد مؤتمر برلين(1878) ، والذي انتهى باحتلال تونس العثمانية من قبل فرنسا (1881)، وقد ألمح دبلوماسيون إيطاليون إلى معارضة هذا الاحتلال، عندها صرحت فرنسا أنها توافق على احتلال ايطاليا لليبيا، حيث في سنة 1902، وقعت كل من الدولتين (إيطاليا وفرنسا) معاهدة سرية والتي منحت بموجبها لإيطاليا حق التدخل في منطقة طرابلس الغرب. ومع ذلك، لم تتبنى الحكومة الإيطالية سوى القليل المبادرات من أجل استغلال هذه الفرصة، وظلت معرفتها بالأراضي والموارد الليبية محدودة خلال السنوات التالية[3].

في المقابل شنت الصحافة الإيطالية حملة تأثير إعلامية ضخمة للتمهيد لاجتياح ليبيا في نهاية مارس 1911، وتم تصوير ليبيا على أنها ولاية غنية بالمعادن، وفيرة الماء، ولا يحميها سوى 4000 جندي عثماني فقط. أيضاً كان السكان يعتبرون معادين

---

[1]- عبد العزيز طريح شرف، جغرافية ليبيا، ط2، دار منشأة المعارف، الاسكندرية، 1971، ص، 09.

[2]- جمال مشري، جغرافية الجزائر والمغرب العربي، المعهد التربوي الوطني، الجزائر، 1987، ص، 150.

[3]- حبيب هنري، ليبيا بين الماضي والحاضر، تر. ابراهيم شاكر، ط1، دار المنشأة الشعبية، ليبيا، 1981، ص، 153.

للإمبراطورية العثمانية ويتعاملون بلطف مع الإيطاليين. ومن ثم اعتبروا الاجتياح المحتمل بأنه مجرد "نزهة عسكرية" أو أكثر من ذلك بقليل[4].

أظهرت الحكومة الإيطالية نوعا من التردد في البداية، ولكن بحلول الصيف تم الانتهاء من تحضيرات الاجتياح، وبدأ رئيس الوزراء جيوفاني جيوليتي تقصي ردود أفعال القوى الأوروبية العظمى الأخرى على الاجتياح المحتمل لليبيا. كان للحزب الاشتراكي تأثيراً قوياً على الرأي العام. ومع ذلك، كان في صفوف المعارضة وشهد أيضاً انقساماً في الرأي حول هذه القضية. لقد تعامل الحزب الاشتراكي بطريقة غير فعالة في مواجهة ذلك التدخل العسكري[5].

تم تقديم إنذار أخير إلى حكومة حزب الاتحاد والترقي العثمانية في ليلة 26 و27 سبتمبر. من خلال الوساطة النمساوية كان رد الحكومة هو اقتراح تسليم السيطرة على ليبيا من دون حرب مع الإبقاء على سيادة عثمانية شكلية فقط. كان هذا الاقتراح مشابهاً للوضع في مصر، التي كانت تحت السيادة العثمانية الشكلية، لكن فعلياً كانت السيادة لبريطانيا. رفض جيوليتي الاقتراح، وأُعلنت الحرب في 29 سبتمبر 1911، وتمكنت ايطاليا من فرض تفوقها البحري، واستطاعت مد سيطرتها على كل مساحة الساحل الليبي (2،000 كيلومتر) بين يناير وأوائل أغسطس 1912، وقررت حينها الدبلوماسية الإيطالية استغلال الوضع للحصول على سلام ملائم حيث تم التوقيع على المعاهدة في لوزان يوم 03 أكتوبر 1912، وكانت من أهم نتائجها يلتزم الخليفة العثماني بمنح الاستقلال الذّاتي لطرابلس وبرقة، وموافقة الحكومة الإيطالية أن يعين الخليفة العثماني القضاة في برقة وطرابلس، وسحب جميع الجنود والضّباط والموظفين من طرابلس وبرقة[6].

02. مشروع ليبيا الايطالية:

اعتمدت فلسفة الاحتلال الأوروبي لشمال افريقيا على مفهوم الامتداد الجغرافي، والفضاءات التاريخية للإمبراطورية الرومانية، التي بلغت امتداداتها شمال افريقيا ودواخلها، لذلك اعتبرت ايطاليا أن ليبيا هي امتداد جغرافي وطبيعي لها لا يفصلها عنها

---

[4]- أحمد اسماعيل راشد، تاريخ أقطار المغرب السياسي الحديث والمعاصر، (ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب، موريطانيا)، دار النهضة العربية، بيروت، 2004، ص، 67.

[5]- محمود شاكر، ليبيا، الدار العلمية، طرابلس، 1972، ص، 112.

[6]- ابراهيم فتحي عميش، التاريخ السياسي ومستقبل المجتمع المدني في ليبيا، ج1، دار برنيف، 2008، ص، 223.

سوى البحر الأبيض المتوسط، هذه الفلسفة مهدت للاحتلال الايطالي لبناء مشروع بأبعد جيواستراتيجية يتبنى الحاق القسم الشمالي الساحلي وضمه إلى الوحدة الترابية لإيطاليا[7].

تشكلت ليبيا الإيطالية من ولاية طرابلس الغرب، حيث كانت تدار كوحدة إدارية واحدة مسماه ب"شمال أفريقيا الإيطالية"، وبعد ذلك من عام 1927 حتي 1934 قسمت المستعمرة إلى قسمين كان يدير كل واحد منها حاكم إيطالي وهي برقة وطرابلس ثم توحدت مع فزان سنة 1934 مكونة ليبيا الإيطالي[8].

لكن هذا المشروع سرعان ما تلاشى بعد ظهور الأطماع البريطانية والفرنسية، ومزاحمتهما للإيطاليين تجلت في ظهور مشروع "بيفن سفورزا" وهو أتفاق سرى كان قد جرى بين وزير خارجية بريطانيا أرنست بيفن ووزير خارجية ايطاليا كارلو سفورزا وفيه تم الاتفاق بين الدولتين في أن ليبيا تحصل على استقلالها بعد عشر سنوات على أن توضع أقاليم ليبيا الثلاث خلال هذه الفترة تحت وصاية دولية تتولى بريطانيا الوصاية على برقة وتتولى ايطاليا بموجبها أدارة طرابلس وتتولى فرنسا أدارة فزان. وقدم المشروع للأمم المتحدة للتصويت عليه امام الجمعية العامة فى 17 ماي 1949 ولتمرريه كان يتطلب موافقة ثلثي الأعضاء الحاضرين وعددهم 58 دولة. وهنا تجلت أهمية وجود الليبيين فى قلب الحدث ومراقبتهم وتفاعلهم مع التطورات السريعة والصفقات المبرمة فى أروقة الأمم المتحدة ونجح أحد أعضاء الوفد الليبي من أجل كسب تأييد ممثل دولة هايتى لدى الأمم المتحدة المتعاطف مع القضية الليبية وكان صوته هو المرجح الذى ادى الى سقوط المشروع وبهذا تم عرقلة أحدى مشاريع لعبة الصراع الدولي التي حاولت أن تحول مابين الليبين وتحقيق الحلم في ولادة دولتهم[9].

03. الليبيون بين الابـادة والمحتشدات:

---

[7]- رياض زاهر، استعمار القارة الإفريقية واستقلالها، دار المعرفة، القاهرة، 1966، ص، 74.

[8]- أبو عبد الله بن خليل غلبون الطرابلسي، تاريخ طرابلس الغرب، تعر. الطاهر أحمد الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة، د.ت، ص، 230.

[9] - بروشين نيكلاي إليتش، تاريخ ليبيا من القرن السادس عشر حتى مطلع لقرن العشرين، تر. عماد حاتم، ط2، دار الكتاب الجديد، بيروت، لبنان، 2011، ص، 213.

الابادة البشرية أسلوب شاذ سلوكيا اقترن خاصة بالمجتمعات الأوروبية التي مارست أقصى أنواع التصفية العرقية والجسدية عند سقوط غرناطة (1492) أو في قارة أمريكا مع السكان الأصليين من الهنود الحمر، ويظهر أن النزعة الدموية، وشيطنة الشعوب الأخرى، والنظرة إليها بدونية عرقية وفكرية باتت عوامل حاسمة ومبررات افتراضية للتصفية الجماعية التي لا تراعي جنسا أو سنا، والفارق فيها أنها مورست من قبل عسكريين ومدنيين على السواء[10].

لقد كانت ليبيا بحكم احتلالها المباشر من ايطاليا قد تعرض سكانها إلى عملية تصفية جماعية ارتكبها ضباط الاحتلال مثل غراسياني، تحولت مع الوقت إلى ارهاب شمولي ساير عملية الغزو والاحتلال للأرض، فقد وضعت الفاشية الايطالية ثلثي سكان برقة في المعتقلات، كما بلغ عدد المعتقلين في البريقة والعقيلة 72 ألف، وكان أكبر المعتقلات مساحة يقع بسلوق التي تبعد 30 كلم جنوب غرب بنغازي، حيث كان به 36 ألف معتقلا سكنوا 5393 خيمة، وبسبب تطبيق سياسة التجويع والتعذيب أصاب المعتقلين الهزال وأمراض الإسهال والمعدة وأورام المفاصل وارتفع عدد الموتى يوميا إلى 150، وفي معتقل المقرون القريب من بنغازي مات حوالي تسعة آلاف وستمائة نسمة جراء سوء التغذية والتعذيب والإعدامات الجماعية، ويذكر الباحث اريك ساليرنو أنه في 06 جانفي 1928، ورد في أحد التقارير أنه جنوب النوفلية أصابت الطائرات الحربية حوالي اربعمائة خيمة بقنابلها المتفجرة وبقنابل الغاز السام [11].

وفي برقة وبغازي أعطى وزيرالدفاع آنذاك أوامره قصد ضرب خطوط الدعم الخلفية لثورة عمر المختار، وتزامن ذلك مع عملية شامل للتراب الليبي، وكانت الخسائر البشرية ضخمة تتنافى وأعراف حقوق الانسان اختلطت فيها دماء الليبيين من مختلف القبائل[12].

04. تفكيك رابطة الانسان والأرض:

كشفت الجغرافيا التاريخية في الفضاء الليبي عن طغيان التقاليد الفلاحية، التي صنعت من عطاء الأرض وتعايش الإنسان قوة ارتباط تجذرت بفعل التداخل الوظيفي

---

[10]- أوليفيي لوكور غرانميزون، المرجع السابق، ص، 393.

[11]- ايريك ساليرنو، حرب الإبادة في ليبيا، ترجمة الصادق حسنين، دار المنار للطبع والنشر، بيروت، 1979، ص، 69.

[12] - Mohamed Mzali, *Un Premier ministre Bourguiba Témoigne*, Sud Editions, Tunis, 2011, p,87.

بينهما، صانعة ثنائية حميمية مهدت لتسلل مفهوم غريزة الانتماء الترابي الحيزي، الذي تحول إلى فضاء جذب[13] ترجمته المصطلحات الريفية المغاربية على غرار الدوار، الوطن، البلاد، فيقال " مُوالين البلد" هم الأهالي أو سكان تلك المنطقة، ومعنى " بلاد المراشدة"، هي أرض المراشدة[14].

واقترن أيضا مفهوم البْلاد في بعض الفضاءات، بالأرض الجماعية، أو أرض العرش عندما تكون بمساحة معتبرة، أما إذا كانت أوسع وبامتداد أكبر، فيطلق عليها تسمية " الوُطَن" حيث كانت السلطة العثمانية في ليبيا قد استعملت هذه التسميات كمعايير في فرض الضرائب، التي تكون أكثر في الوطن، وأقل قليلا في البلاد[15].

وبين ثنائية الأرض والإنسان، حاول الاستعمار تفكيك هذه الرابطة، من خلال مواكبة الآلة العسكرية التي وظفت في عملية الغزو والاحتلال، ظاهرة "الاستعمار بالمحراث" الذي استمد خططه البعيدة من تقاليد الاستعمار الروماني لشمال إفريقيا، باعتبار أن عمل الكولون اندرج ضمن إحياء فكرة الرومنة (Romanistion) وبالتالي تقاطع العمل العسكري مع التفكيك البنيوي الاقتصادي الذي استوحى منطلقاته وأجندته من خاصية شعوب شمال افريقيا التي تعاطت الزراعة منذ عهود، وتحولت لديهم إلى نسق معيشي – هوياتي متجذر عرفا وتقليدا[16].

05.التشتيت الاجتماعي:

كانت من تحديات الرسالة المحمدية في مهدها بشبه الجزيرة العربية هو الانتقال بالأعراف الاجتماعية التي قامت في بعض مظاهرها على التمييز العرقي والعبودية في أعتم صورها، إلى مجتمع متماسك ومتضامن الفرق بين أفراده تحكمه "التقوى"، لكن بزوال فترة الخلافة الراشدة في الأربعين هجري، عادت النمطية القديمة ليغلب العرق العربي في تولي الخلافة وإزاحته لبقية الأعراق، حتى أن بعض الدارسين أطلق عليها تسمية الدولة

---

[13]- Paul Baudrand, *Dictionnaire géographique universel, contenant une description exacte des Etats, royaumes, villes, forteresses, montagnes, caps, lacs, mers,golfes, détroits,* éditeur chez François Halma, Hollande,1701, p.231.

[14]- Mohamed Ben Cheneb, *dictionnaire pratique Arabe-Français*, OPU, Alger, 2014.p.71

[15] -Mouloud Gaid, *Chronique des beys de Constantine*, Office des Publications Universitaire, Alger, 1975, p.147.

[16]- ناصر الدين سعيدوني، الجزائر منطلقات وآفاق، المرجع السابق، ص، 36.

الأموية العربية[17]، وعلى أنقاضها قامت الدولة العباسية التي تغلغل فيها العنصر السلجوقي (العرق التركي)، الذي أصبح يتحكم في دواليبها[18]، وصدرت هذه الدولة كل خلافاتها ومتناقضاتها إلى بلاد المغرب التي يبدو أنها غرقت في هذه المرحلة في وجدان " الخطاب الديني الموجه" حتى أن التشيع الاسماعيلي غمرها، بعد أن وجد له حليفا قويا في قبيلة كتامة البربرية، التي بنت بسواعدها قاهرة المعز لدين الله الفاطمي، الذي أيقن أنه لا نفوذ له ولدولته على بلاد المغرب دون العودة إلى آليات مجتمعات شبه الجزيرة العربية، وهي العرقية، التي دفعوا بها إلى بلاد المغرب بغية التحكم في مجتمعاته الأمازيغية، وهنا شكلت الهجرات العربية الهلالية السليمية خلال القرن الحادي عشر ميلادي أحد صور الزحف البشري بعرقية وبداوة يتماهى فيها الدين مع السياسة، وهو الوضع الذي أنتج متناقضات نصية فتحت باب القراءة والقراءة المضادة والتأويل والتأويل النقيض، حول مستوى الطرح الاثني في بلاد المغرب.

تتساءل الأدبيات الاستعمارية لماذا قبر الفاتح عقبة بن نافع الفهري معلوم وصار محجا للزوار ومرتادي الهجرات الحجازية، بينما قبر كسيلة من قبيلة أوربة البربرية وهو الزعيم في قومه اندثر وصار صرابا ؟ ولماذا دهية من قبيلة جراوة ركزت عليها النصوص العربية وصورتها بتلك المرأة الساحرة التي تجتمع فيها أقبح الأوصاف حتى أنهم هم من وصفوها بالكاهنة، رغم أنها كانت سيدة في قومها، فيما تغاضوا عن الخوض في سيرة ابنيها بعد دخولهما للإسلام ؟

لقد اعتبرت الأدبيات الاستعمارية أن بلدان المغرب العربي هي فضاءات بربرية أقحم فيها العنصر العربي بعد أن وظف الايديولوجية الدينية، وهي الايديولوجية التي لم تستطع المقاومة أمام قوة الأعصاب القبلية التي أنتجت تفككا اثنيا انقسم بين البربر والعرب[19]. ورغم أن البحث في موضوع الإثنية يحيلنا في النهاية إلى تأويلات ومقاربات هي أقرب إلى الشك منها إلى اليقين، لأن الانصهار والانشطار والمجاورة والمصاهرة آليات قبلية بامتياز قضت إلى حد كبير على الطرح الاثني، إلا أن السياسة الاستعمارية في ليبيا وحتى

---

[17]- محمد بك الخضري، الدولة الأموية، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997، ص، 402.

[18]- محمد بك الخضري، الدولة العباسية، دار المعرفة ، بيروت، 2001، ص، 350.

[19] - Pierre Bordieu, *op.cit*,p, 68.

الفضاء المغاربي اهتمت بإثارة مثل هذه المواضيع، تناولتها تقارير وزارة الحربية، وكتابات ضباط الاحتلال على غرار شارل فيرو[20]، فاسيار، وبيار كاستال[21] ..الخ.

وقد أثيرت في هذا الصدد المئات من الدراسات حول الاثنيتين العربية والبربرية، وصراعهما المتواصل كانت من ملامحه حسبهم توظيف العثمانيين للعنصر العربي كقبائل مخزنية حليفة، ضد العنصر البربري الذي عاش بعيدا عن هذه السلطة[22]، واثيرت في هذا الصدد الكثير من الدراسات الاثنوغرافية على غرار دراسة آشيل روبار (Achile Robert) التي صدرت سنة 1909 والموسومة بـ" دراسة اثنية حول السكان الأهالي نقاش بين مرأة عربية ومرأة شاوية"، وحاول آشيل ابراز حالة الاحتقان والسخرية التي تظهرها كل واحدة ضد الأخرى انطلاقا طبعا من أصولهما المختلفة[23].

06.بين السلطة والتسلط:

عقب النهضة الأوروبية برزت آليات جديدة في الحيز الأوروبي لإدارة الدول والمجتمعات، أصبح فيها الشعب وعاء تُستمد منه السلطة التي تتفرع إلى ثلاث هي السلطة التنفيذية، والسلطة التشريعية، والسلطة القضائية، وتدار هذه السلطات وفق ضوابط استقلالية، تكرس الدورة المؤسساتية، وتضمن التناسق بين النص، الواقع والرقابة. لكن هل الظاهرة الاستعمارية تبنت هذا المفهوم للسلطة في المستعمرات المغاربية ؟

في الواقع سقط هذا المفهوم وتدحرج إلى بعد سلطوي بأبعاد تسلطية، داخل ليبيا وحتى بقية المستعمرات، وذلك من خلال محورين الأول اجتماعي ثقافي، والثاني سياسي، أما المحور الأول فتبنى ثقافة المجتمعات المتخلفة التي لا ترقى حسبهم إلى ركب الحضارة، ولا تتناغم حياتهم مع ما تشهده الأمم من تقدم، وبالتالي هي مجتمعات -حسبهم - بدائية لا تصلح أن تقدم الاضافة النوعية أو تكون عنصر فاعل في مسار البناء الحضاري،

---

[20] Laurent Féraud Charles, « Les Harar seigneurs des Hanencha » *R.A*, n°18,1874, p.22-32 ,119-123,127-149,196-236,281-294.
Laurent Charles Féraud , «Ain Beida » *R.A*, n° 16, 1872,p.402- 419.
Laurent Charles Féraud, « Notes historique sur les tribus de la province de Constantine » *R.S.A.C*, n° 13,1869 ,p.20- 45.
Laurent Charles Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine, Setif,Bordj Bou Areridj-Mesila- Bousaada*, Editeur Arnolet, Constantine,1872.

[21] -Pierre Castel, *Tebessa, Histoire et description d'un Territoire Algérien*, Paris, 1904.

[22] -Eugènes Vaussettes, *op.cit*, p, 38.

[23] - Robert Achille « Etude ethnographique sur la population indigène de la commune mixte d'Ain M'lila », *R.S.A.C*,n° 43, 1909, p.161-185.

ومنه لا يمكن أن ترقى إلى مصاف المواطنة (حقوق وواجبات)، بل تبقى حبيسة الجماعات المحلية، أو الأهالي الذين لم ولن يكونوا وعاء تُستمد منه السلطة[24].

أما في المحور السياسي فتبنى المشروع الاستعماري تغييب العنصر الأهلي للمشاركة في السلطة الفعلية التي تصنع القرارات وتبني السياسات، بل قزم دوره في مشاركات محلية عبر جغرافيا محدودة تجعل منه وسيطا وتابعا. وبالتالي أمدتنا هذه الرؤية الاستعمارية بسلطة مزدوجة المعايير، تستمد " شرعيتها" من المعمرين، ومن العواصم الأوروبية، فيما تفرض تسلطها وجبروتها على العنصر المحلي[25].

07. ضرب مؤسسة الجماعة:

كان المجتمع الليبي مجتمع بسيط مركب من صلات دموية، لحمية، تعيش في شكل حلقات عشائرية، يحكمها العرف وتديرها مؤسسة الجماعة التي تتشكل من أعيان يفرزهم فارق السن والثروة[26]، يكفلون إدارة المنافع العامة، ويسهرون على ترتيب المعاملات اليومية والعلاقات الاجتماعية، وفق سياقات دلالية تكون فيها أمانة الكلمة، صدق الوعد، شهامة الرجولة كمعايير أخلاقية- ممارستية كانت بديل عن القانون النصي الذي كان سائدا في المجتمعات المدنية الأكثر تعقيدا، والتي انخرطت في تأسيس مفاهيم الدولة الحديثة[27].

وضعت إدارة الاحتلال الايطالي نصب عينيها مشروع تفكيك مؤسسة الجماعة، وإعادة تركيبها وفق تصورات تجعل منها آداة هشة قاصرة ذاتيا في التعاطي مع واقع اقتصادي واجتماعي تغير بشكل جذري، وتحوير دورها من مؤسسة محلية تشتغل بشكل أفقي، إلى شكل عمودي ينفذ قرارات فوقية تمليها الإدارة الاستعمارية، فإذا ما أخذنا النموذج الليبي، نجد أن هذه المؤسسة قد فككت بعد إعادة رسم الخارطة العقارية والاعلان عن مشروع الملكية الفردية، الذي فكك القبائل إلى مساحات جغرافية عرفها المشرع باسم

---

[24]- أوليفيي لوكور غرانميزون، الاستعمار الإبادة، تأملات في الحرب والدولة الاستعمارية، دار الرائد للكتاب، الجزائر، 2008، ص، 121.

[25]- المرجع نفسه.

[26]-Eugénes Vayssettes, *op.cit*, p.33

[27]- حول الدولة مفهوم الدولة الحديثة وكيفية اشتغالها في أوربا يرجى الرجوع إلى:

Sandor Bethon, *La naissance de L'État moderne européenne et les changements de la fonction*, délkelet europa-south-east europ international relation quarterly,Vol. 1. No. 4 (Hiver 2010/4.).

دوار كومين (Douar commune)، انتج فيها المشرع مؤسسة الجماعة تخدم المشروع الاستعماري وتحفظ مصالحه في عمق الريف[28].

[28] - Exécution du Sénatus-Consulte du 22 avril 1863, *constitution des Douars commune*, procès-verbaux du Sénatus - Consulte: Tribu des Ameurs Cheraga, n° 14. D.R.C.C.